

الفيلسوف و«مشكلة الحب»

بقلم سيد صبحي

تقديم:

ولكن الفيلسوف صاحب الكتاب يقدم لنا حقيقة هامة جدا عن مفهوم الفلسفة فيقول: لقد كان القدماء يفهمون الفلسفة على انها (حب الحكمة) ، ولكن الفيلسوف المعاصر « هيدجر » يأبى الا ان يقلب الوضع فيقول: « ان الفلسفة هي (حكمة الحب) والفيلسوف هو الحكيم الذي تخصص في الحب » . وهيدجر على حق حينما يجعل من « الحب » موضوع تخصص الفيلسوف على شرط ان تفهم من لفظ الحب هنا تلك الرابطة الوثيقة التي تجمع بين الفكر والطبيعة او ذلك الرباط السحري الذي يوحد بين الانسان والعالم - فالفلسفة هي بمعنى ما من المعاني (حكمة الحب) ، ويصبح الفيلسوف هو أقدر الناس على الحديث عن الحب - وليفضل القارئ العزيز بقراءة ما تضمنه الكتاب من أفكار مع وضع الاعتبار الآتي: ان الفيلسوف هو وحده الذي يعرف (انك لكي تفسر الحب ، فلا بد لك من ان تمضي الى ما وراء الحب)

اولا : اشباه الحب

يحدثنا الفيلسوف صاحب الكتاب عن اشباه الحب فيتناول « حب الذات » ويقرر حقيقة هامة مؤداها: « انه هيهات للموجود البشري ان يصبح عين ذاته في عالم اشياء - لان الانسان لا يصبح (أنا) بمعنى الكلمة الا حينما ينطق لأول مرة بكلمة (أنت) فالوجود الحقيقي بالنسبة الى الانسان انما يتحقق من خلال تلاقيه مع غيره من الاشخاص . ومعنى هذا ان (الذات) لا تصل الى مرحلة (الانية) الحقيقية الا حينما تلاقى ذلك الاخر الذي تستطيع ان تخاطبه بلفظ (أنت) وهكذا تعطينا فكرة (حب الذات) صورة ناقصة من صور الحب - حب ناقص يسير في اتجاه واحد فقط - واما الحب الحقيقي فهو تلك العلاقة الحية التي تقوم على التبادل والتجاوب - اذ تنشأ بين الطرفين علاقة اخذ وعطاء - فأحيا أنا بحياة الاخر ، ويحيا الاخر ايضا بحياتي - ومعنى هذا: انه لا يمكن ان يكون ثمة حب حقيقي اللهم الا اذا كنا اثنين » .

ثم يعرض الفيلسوف صورة اخرى من صور اشباه الحب فيتناول « الشفقة » قائلا:

« ان انعدام المساواة بين المحب والمحبوب هو الذي يدفعنا في كثير من الاحيان الى ايثار كلمة (شفقة) او عطف للاشارة الى هذا النوع من التعاطف بدلا من استخدام كلمة (محبة) او (حب) ومن هنا فاننا نقول عن الشخص الذي يولع بتربية الحيوانات انه يعطف على الحيوان او يشفق عليه ، ومعنى هذا ان حب الحيوانات ليس سوى ضرب من الشفقة او العطف دون ان يكون

ان الانسان ليحس برعشة من السرور والقلق وهو يتناول هذا الخليط الشعوري والاشعوري الذي تضمنه كتاب « مشكلة الحب » (1) للاستاذ الدكتور زكريا ابراهيم . . ثم لا يلبث القارئ ان يجد في الكتاب ميزة هامة أنفرد بها الكاتب الا وهي (الدباليكتيكية الفكرية) فهو ليس كالتفكير المنطقي العقلي موحدا منتظما مشعورا به بل هو خليط متناقض - اذا اراد التجسد احتاج الى اكثر من فكرة . . ومن هنا فقد جاء هذا العمل خليطاً معقداً ، وهذا ما يثيره ويزيده اشتعالاً - واستمرار هذا التناقض الجوهرى فيه يجعلنا في حاجة الى ان نقرأه اكثر من مرة ، ولن يهدأ بال القارئ حتى يحس او يتوهم عندما يتناول هذا الكتاب انه قد سيطر على الانفعال الذي يلف ابواب الكتاب ذلك الانفعال الذي يؤكد حقيقة هامة هي: ان الحب بمعناه الحقيقي هو قوة دافعة بالذات الى اغناء نفسها حتى تبلغ أقصى درجة ممكنة لتمام التحقق الفعلي ، ونزوع مستمر نحو بلوغ هذه الغاية ، ومن هنا امتياز بالحركة الدائبة وبالخلق والايجاد . فغاية الحب هي الخلق والايجاد وهو بذلك يدعو الى الزيادة في التحقق ، ويدفع نحو تحصيل لفعل جديد ، ومن هنا كان يشير دائما الى آت لم يتحقق بعد أي الى المستقبل المليء بالحنان والتشويق واذا كان الأدب هو التعبير الفني الذي نستطيع ان نلمح فيه هذا التنقل من المستويات الحسية الى المستويات الوجدانية والفكرية . . فالفيلسوف صاحب هذا الكتاب عندما يكتب بلغة الأدب فهو وحده الذي يستطيع ان يعطيك في الشخص ما هو انساني!

وهنا سيكون علينا بالضرورة ان نتساءل: هل الحب الانساني حقيقة لها وجودها؟ ام هو مجرد وهم وخداع؟ وهل يقتصر الحب على علاقة الانسان بالانسان ام ان هناك ماهية مشتركة تجمع بين كل ضروب الحب؟ وهل يصح القول بأن الحب الجنسي هو الاصل الذي ترتد اليه كل اشكال الحب؟ وهل الحب هو مجرد عاطفة ام هو (فعل عرفاني) ام هو نزوع نحو القيمة . . ام هو شيء اخر غير كل هذا؟ كل تلك الاسئلة يأخذ بعضها بركاب البعض الاخر وهي في مجموعها تكون ما اصطلح على تسميته « مشكلة الحب » . . ولكن ليس من الخطورة بمكان ان نسائر هؤلاء الفلاسفة المتعارضين في احاديثهم عن الحب خصوصا وان اصحاب الفلسفة فيما يقول خصومهم قد دأبوا على تعقيد ما هو واضح بدلا من ايضاح ما هو معقد؟!!

(1) مشكلة الحب تأليف الدكتور زكريا ابراهيم منشورات دار الاداب.

انت مطلقة او انت ازلية ابدية او انت لا يمكن ان تستحيل الى هو .

ثالثا : أنماط الحب

وإذا كان الفيلسوف مؤلف الكتاب قد قدم لنا فيما سبق اشكال الحب وبرز النماذج الاساسية لتجربة الحب في حياة الانسان فاننا نراه الان يعرض لنا في حديث شيق جميل « أنماط الحب » وهو في حديثه عن هذه الأنماط سيعمد الى الكشف عن أساليب مختلفة من الحب عرفها البشر على مر العصور في علاقاتهم العاطفية لشتى موضوعات الحب ، ومعنى هذا ان المؤلف يحدثنا عن هذه الأنماط المتنوعة على انها قد ارتبطت بحضارات معينة او اتجاهات فلسفية خاصة . وبلزمة فنية من لمسات الفيلسوف يظهر لنا النمط اليوناني ، ذلك النمط الذي اصطلح على تسميته باسم الايروس Agapé او « العشق » . . ويقدم لنا صورة صادقة لعبيد الايروس على انهم لا يحبون المحبوب بل يحبون الحب . . وهؤلاء لا يعرفون قيمة الشخص الفردي ، وهم لا يريدون ان يكون هناك اثنان في الحب . . بل هم يتصورون في قرارة نفوسهم انه لا بد لواحد من المحبين ان يختفي من الوجود لكي يستمر الحب . . ثم يتناول الفيلسوف طبيعة الايروس ذلك النمط الذي لا يقنع بشيء والذي لا يقوى على الامتلاك ولا يعرف التسع . ولا عجب بعد هذا ان يشبه الناس الحب دائما بالنار . . وهل تحرق النار الا بحركتها المستمرة ؟ فالايروس سورة ديناميكية لا تهدأ وحركة دياكتيكية لا تتوقف ، وهذا هو السبب في ان عبيد الايروس لا يمكن ان ينعموا بلذة الاستقرار او ان يعرفوا عذوبة الامتلاك . . . او ان يسعدوا باسعادهم لغيرهم من الناس » .

وإذا كنا قد رأينا ان فكرة التبادل قد انعدمت في « الايروس » وان العشق نمط اناني من أنماط الحب فلا بد من ان نتعرض لنمط اخر من أنماط الحب وهو النمط المسيحي الذي نطلق عليه اسم « الاجاييه » Agabé وهنا نجد ان « الاجاييه » تختلف اختلافا جذريا عن الايروس لان الاولى منهما تقوم على التبادل والمشاركة في حين ان الثانية منهما تقوم على العشق الذاتي والاندفاع المستمر ، واذا كنا نفرق هذه التفرقة الحاسمة بين هذين النمطين من الحب فذلك لان المسيحية قد ادخلت في مضمار التفكير الديني مبدأ جديدا لم تعرفه سائر الديانات الاخرى السابقة الا وهو مبدأ التجسد الالهي - وبطبيعة الحال التجسد أمانة على تحقق ضرب من التوافق بين اللامتناهي والمتناهي - وهذا ما لم نجد له ادنى اثر في الايروس - وأخيرا لا بد لنا من ان نتذكر ان « الاجاييه » المسيحية لا تعني الاستغراق في الله او الاقتصار على محبة الله بل هي تعني ايضا حب القريب والاحسان الى اخوتنا في الإنسانية وهذا ما عبر عنه يوحنا الرسول حينما كتب يقول : « ان قال احد اني احب الله وأبغض اخاه فهو كاذب . . . لان من لم يحب اخاه الذي ابصره كيف يقدر ان يحب الله الذي لم يبصره ؟ واذن فان الوصية المقدمة لنا هي ان من يحب الله يحب اخاه ايضا » .

ثم يتناول الفيلسوف نمطا ثالثا هو نمط «الصدقة» وربما كان الفارق الاساسي بين هذا النمط الثالث من

فيه اي موضع لمبادلة حقيقية او مشاركة فعالة او مواجهة بكل معنى الكلمة . . . » . وهنا نجد أنفسنا بازاء فلسفة مفتوحة توحد بين معاني المحبة والشفقة والسخاء الروحي فتنادي بأن (الانا) في حاجة منذ البداية الى (الانت) لان انغلاق دائرة الذات على نفسها هو ضرب من المستحيل و (الشفقة) بهذا المعنى هي ضرب من الاحسان او السخاء او الخصوبة الفائضة . فكما ان ندى الام في حاجة الى الشفاء النعمة التي تستنفده فان قلب الموجود (الانساني) بحق هو في حاجة ايضا الى النفوس المتألمة التي تستطيع ان تجد لديه الحنان والعطف .

ويختتم المؤلف الباب الاول من الكتاب بصورة اخرى من صور أشباه الحب وهي « التعاطف » . وهنا تلوح لنا فكرة هامة من التعاطف بوصفه صورة من صور اشباه الحب يقدمها لنا المؤلف ليؤكد ان تعاطفي مع الاخرين لا يعني ان سرورهم قد اصبح سروري او ان المهم قد اصبح ألي . . بل هو يعني انني اشارك في مسرات الاخرين بوصفها مسراتهم ، وانني اشارك في الهمهم بوصفها الهمهم .

وكان الفيلسوف صاحب الكتاب الذي نحن بصدهه يريد ان يقول : « ليس في التعاطف الحقيقي اي تقمص وجداني او اندماج عاطفي » - التعاطف اذن عاجز عن تخطي العوائق التي تفصلنا عن الاخرين في حين ان الحب يتجه اولا وبالذات نحو القرار الباطني العميق لذلك الاخر الذي نبغي النفاذ اليه .

ثانيا : اشكال الحب

يبدأ المؤلف في الباب الثاني في تفسير اشكال الحب فيقدم لنا (الامومة) بوصفها علاقة انسانية حيوية تقوم على حاجة الطفل الى الام ، وحاجة الام الى الطفل ، وينتهي المؤلف الى ان الامومة الصحيحة هي رابطة وجدانية عميقة تغير من السمات الشخصية لكل من الام والطفل - ويتخطى المؤلف مرحلة الامومة ليتكلم عن (الاخوة) ثم يحمل لنا الحديث عن هذه العاطفة الانسانية فيقول : انها تجربة روحية يدرك عن طريقها الانسان ما بينه وبين الاخرين من ترابط فيحاول ان يحقق خلاصه مع الاخرين وبالاخرين ، وحين يتحقق الانسان من انه هيهات له ان يحقق نجاته بمفرده فانه عندئذ قد لا يتردد في القول مع الفيلسوف الفرنسي (مونييه) : « انني لا اوجد حقا الا بقدر ما اوجد للاخرين ، وما الوجود في النهاية سوى الحب » . ولكن الانسان قد يشعر حتى حين يكون مستغرقا بتمامه في أعماق المحبة البشرية انه لا يزال يعاني الام الوحدة والانعزال ، وانه لم ينجح بعد في التغلب على القلق الناجم عن الشعور بالعزلة والانفصال . ومن هنا لا بد للوجود البشري ان ينشأ صورة اكمل واشرف وانقى من صور الحب وتلك هي الصورة التي قدمها لنا الفيلسوف المؤلف تحت عنوان « العبادة او حب الانسان لله » وجدير بالذكر ان نبيين للقارئ ان المؤلف لم يقصد انه لا بد بالضرورة من ان يكون تصورنا للحب الالهي تصورا بشريا بحثا بل نحن نعني ان حب الانسان لله (او لالهه) كثيرا ما يجيء على صورة الانسان ومثاله ، ومن هنا فقد بقي حب الانسان لله مجرد علاقة مشخصة تقوم على التبادل بين (الانا) و (الانت) وان كنا هنا بازاء (انت) من نوع خاص لانها

حقائق جديدة يكتشفها للمرة الاولى في شخص محبوبه..
 وأنا لا وافق المؤلف على ان الحب يموت بهذه
 الصورة ، وردى عليه ما كتبه المؤلف نفسه في كتابه
 « تأملات وجودية » (1) حينما قال عن الحب : « الحب
 هو الذي يرفع كل شيء وكل حي الى مستوى « الوجود
 الخالد » والحب هو الذي يهب الحياة الابدية لكل ما
 يمسه او من يتلبس به ! فلا بد لنا من ان نعمل على
 مصارعة الموت باسم الحب او باسم هذه الحياة
 الابدية !.. » .

الحب لا يموت اذن .. اذا كان قد عاش في منبت
 خصب . وكيف يموت الحب وأنا أعيش ؟.. ليست
 التجربة الحية الخلاقة التي مرت بها كفيلا على الاقل
 ان تمنحني ذكرى أعيش عايشا .. وتتأكد هذه الحقيقة
 أمام كل المحبين « ان من يحب شخصا فكأنما يقول له :
 انك لا يمكن مطلقا ان تموت بالنسبة الي » .

خاتمة :

وفي الختام لا نمك الا ان ننظر بعين الاعجاب لهذه
 الصيغ الميسورة ، والحرية الظاهرة في الاسلوب ، فلم
 ينزل المؤلف بالفكرة العالية الى ارض التهوان او دنيا
 الاستهتار وانما احتفظ بمنزلته العليا في سماء الرفعة
 والجلال وهو الذي اختتم كتابه الذي نحن بصددده قائلا :

« ان الحب قيمة القيم . فان القيم الاخرى لا تقوم
 بذاتها ، واما الحب فهو القيمة الوحيدة التي تقوم بذاتها.
 فطوبى اذن لمن احب ، ثم طوبى لمن عرف اذا احب كيف
 يولد لدى غيره الحب ، وكيف يستشف فيمن حوله
 بذور الطيبة والخير . ان الكائن العميق لهو في حاجة
 دائما الى ان يصدق ويحب حتى يظهر ويتجلى ، والحب
 هو الذي يكتشف بذور الخير والجسمال في كل مخلوق
 حتى في أشد الوجوه صلابة وأكثر النفوس تفاهة فيجعل
 منها بذلك مخلوقات جديرة بالحب » .

سيد صبحي

القاهرة

(1) تأملات وجودية - الدكتور زكريا ابراهيم - منشورات دار الاداب.

فندق كلاريدج

شارع سليمان بالقاهرة

موقع ممتاز واسعار معتدلة

بادارة : حلمي المباشر

الحب والنمطين السابقين هو انه علاقة تبادلية تقوم
 على التكافؤ أو المساواة فهو اوضح صورة من صور
 العلاقات الشخصية ، وبالتالي فانه يمثل حبا انسانيا
 صرفا يستند الى تلاقي شخصين حرين . ولكن اذا صح
 ان الحب في الصداقة لا بد من ان يكون عبر بعض
 الموضوعات المشتركة ، افلا يحق لنا ان نتقص من قدر
 هذا النمط من أنماط الحب ؟ وهل يمكن ان يكون حب
 الشخصين لموضوع واحد مساويا لحب أحدهما للآخر ؟
 بل هل يمكن ان نعد هذا الوصال غير المباشر وصلا
 روحيا حقيقيا ؟ اليس الادنى من المعقول ان نقول مع
 جانكلفيتس : « ان محبة اشياء واحدة بعينها ومحبة
 الانسان لآخيه الانسان انما هما امران مختلفان تمام
 الاختلاف ... » .

رابعا : أطوار الحب

ويعرض لنا الفيلسوف في الباب الرابع من كتابه
 مشكلة الحب (أطوار الحب) فيتناول أولا : مولد الحب ،
 ويقرر حقيقة هامة ان الدلالة الحقيقية للحب في حياة
 كل منا انما هي هذا الكشف الفريد الذي ننزع بمقتضاه
 النقاب عن بعض القيم ، وحينما تستشعر الذات ضربا
 من الحب الفجائي نحو شخص ما من الاشخاص فانها
 عندئذ تكتشف في شخص هذا القريب معنى خاصا للقيم
 هو في الوقت نفسه معناها هي ... وبذلك فان من
 شأن تجربة الحب ان تتخذ في نظرنا طابع الكشف الحاسم
 المطلق لانها تقضي على تلك الهوة التي تفصلنا عن الجنس
 الاخر . ولكن لا بد من ان نتساءل كيف توصل سيمفونية
 الحب سيرها الايقاعي بعد هذه النغمة الافتتاحية
 الرائعة ؟ وهنا يقدم لنا الفيلسوف المؤلف فكرة رائعة
 وضعها تحت عنوان « حياة الحب » وقرر ان كلا منا
 يتذكر بكل وفاء وعرفان بالجميل تلك الفترة السعيدة من
 فترات حياته حين كان صادقا ، طبيعيا ، سخيا ، نزيها
 عن كل غرض ، تلك الفترة الهاربة من الزمن حينما كان
 يحاول ان يكف عن المطالبة بحقوقه وان يتناسى الجري
 وراء المنفعة ، وان يقلع عن حب المظاهر وان يكون مخلصا
 بسيطا تلقائيا نقي السريرة !!

ولكن ألا يستطيع الحب ان يحيا مستغنيا عن
 الزواج ؟ هنا نلاحظ ان الكثيرين قد ذهبوا الى القول
 بوجود بون شاسع بين الحب والزواج بدليل ان الرابطة
 الزوجية كثيرا ما تكون هي الكفيلة بالقضاء على سورة
 الحب فضلا عن ان تبعات الحياة الزوجية وما فيها من
 روتين كفيلا بالقضاء على كل ما في الحب من تلقائية ،
 ولكن اذا وافقنا المؤلف على هذه الفكرة لن نستطيع الا
 ان نقول بأن الفشل هو الكلمة النهائية في كل درامة
 عاطفية وان الموت حق على كل حب كما هو حق على
 كل حي ، وتلك هي المشكلة التي اختتم بها الفيلسوف
 كتابه تحت عنوان « موت الحب » ويقدم لنا تحت هذا
 العنوان نهاية الحب ، وان معجزة الحب الكبرى كثيرا
 ما تخيب لكي يستيقظ شعور الحب اليأس او المخدوع
 على تلك الحقيقة الاليمية المرة الا وهي ان « الاله الذي كان
 يتعبد له ليس الا مخلوقا بشريا تافها » وهذا هو السبب
 في ان المحب قد لا يفتن في مرحلة الاغراء الى عيوب
 حبيبه ان لم نقل بأنه قد يرى في هذه العيوب نفسها
 محاسن لكي تستأثر وحدها باهتمام المحب ، وكأنما هي